ليست الصدفة وحدها ـ بحال من الأحوال ـ هي التي حرّكت ذينك الحدثين عشوائياً لينساقا إلى التلاقي في مثل هذا الالتقاء، بل التدبير العلوي هو الذي ساقهما هذا المساق، بل الصدفة أيضاً يحكمها قانون مقدور، لا يحيط بسرّه وعي الوعاة. بل كلتا الواقعتين إيماء إلى ما سيطلع عليه غد قريب، إلى صباح في ضمير الزمان يحمل للعالمين الصفاء والنور. فالنار تهمد، استجابةً لداع دعاها أن: كوني سلاماً سلاماً، واخشعي وقومك لرسالة السلام والإسلام التي سوف تجيئك من جهه الغرب، عبر تيار مجرى دجلة وأوادي[236] ماء الخليج. والبحيرة تنضب، وتصبح أرضاً جافّةً يابسةً، كأنّما لكي تعلم الدنيا أنّ أهل الجدب والمَحْل[237]، أولئك المقيمين في متاهات الرمل (بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع)[238] عند البيت الحرام، هم بفضل ربّهم، وبقوة الإيمان، أصحاب الغلبة على أهل الجنى[239] والظلال. * * * ولا يغيض هذا المعين الميمون، تتابع على الأيام، من قبل «الميلاد» وبعده، وعلى امتداد مراحل عمر الوليد الموعود توالت البشارات والآيات، وهي تتواكب بشارة بشارة، وآية آية حتّى يكون آخرها القرآن. ودَعْ عنك منها ما سجّلت صحائف الأَولين، وما هجس في صدور البَرَرَة الأنقياء، وما شأمت فراسات[240] الكُهّان، وما تلاغط[241] به في صوامعهم الأَحبار.